

هتاف الهاوية

اقصصة فرنسية

واهتزت الصخور وفتحت الهاوية فاهما ، فتساقطت الجنود فيها في أقل من لحظة ، وتراجع من بقي إلى الوراء وهم يسمعون صراخ رفاقهم يصعد من الهاوية بأعين يفتت الأكباد . وساد السكوت بعد برهة ، فرجعت الوديان صدى عويل الشجعان ، وقد تواروا عن الأبصار في ظلام هاوية لا قرار لها

ومرت الساعات وقد عاد كل من الفريقين إلى معسكره وأحى القوى ، وقد خارت العزائم أمام هذه الكارثة ، وتضعض الرأي في إنقاذ ضحايا الهاوية وعند الساعة التاسعة قبل الظهر دخل معسكر الفرنسيين رسول من قبل (ولنجتون) وطلب الثول أمام المارشال ناي ، وكان هذا منفرداً في مضربه غارقاً في لجج التفكير يتقطع قلبه حزناً . فتقدم الرسول ووقف بين يديه وقدم إليه رسالة من مولاه ، فأخذها من يده وتلاها كأنه مستفيق من حلم عميق ثم نادى أحد القواد وقال له :

— أعد فرقتك لتسير معي إلى الجبل

وما مضت دقائق معدودة حتى كانت الفرقة تتسلق الجبل بقيادة المارشال . فلما وصلوا إلى القمة رأوا ولنكتون في انتظارهم وحوله قواد جيشه ، وكلهم واجهون . فقال ولنكتون لناي :

— إنك مهم ولا ريب بأمر الشجعان الذين ابتلهم هاوية الكوبا هذا الصباح . وأنت تعلم أن العداء يقف عند الكوارث ؛ فلنتعاون لعل بين رجالك ورجال أحياء يمكن إنقاذهم من هذه الميته الشنعاء وتقدم ناي إلى ولنجتون وصاحفه قائلاً :

— كان علينا أن نفكر في هذا الأمر دون تأخير ، ولكن الاضطراب جمد دمي ، وهذه هي المرة الأولى في حياتي التي أشعر بها برعشة الخوف وتقدم الجميع إلى فوهة الهاوية ، وكانت الشمس المحرقة تمكس أشعتها على الصخور البيضاء ، والهواء

كانت الجيوش الانكليزية معسكرة على قمة جبل الكوبا متحصنة في مراكز منيع ، لا تحسب للحملة الفرنسية حساباً ، وكانت هذه الحملة تدور بقاعدة الجبل ولا يعلم قوادها كيف يتدبرون الأمر ، حتى رأى القائد الأكبر (ناي) أن يجمع الجيوش وينظمها ليقذف بها الجبل النيع . ودوت الوديان بصوت النفير المعلن الهجوم ، فاندفعت الكتائب تتسلق الصخور كأنها محمولة على أجنحة ترفعها رفماً في الهواء

وما مضت ساعة حتى كانت عساكر ناي وعددها أربعة آلاف مقاتل تحديق بالانكليز على قمة الجبل ، فذعر الجيش المرابط لهذا الهجوم المفاجيء فأصلوا المهاجمين من مدافعهم ناراً حامية ردتهم لأول وهلة على أعقابهم ، فلم يمد يرى على تلك المرتفعات المانقة اليوم إلا أشلاء تتطاير في الجو ، ولم يمد يسمع إلا الأنين يخفنه إرعاد البارود يعقد بدخانه السكثيف قباًبا تسمى الميون . وكان كلما أبادت المدافع صفاً من صفوف الفرنسيين يتقدم غيره من ورائه ليتقبل الموت . ونفدت الذخيرة ، فصمتت المدافع ، وبدأ الدخان ينقشع عن الموقع ، فخشى الانكليز ارتداد الأعداء عليهم فعادوا أدراجهم مدبرين

وارتفع صوت المارشال ناي هاتفاً بجنوده :

— هيا إلى الأمام !

فتراكضت الكتائب لاحقة بالأعداء معملة فيهم السيف حتى بلغوا منحدر الجبل للجهة الثانية ، فارتجفت الأرض تحت أقدام المتراجعين والمهاجمين

هذه الوهاد العميقة نخلص منه رجالنا ؟
وتقدم القس الى فوهة الهاوية ، ثم تراجع وقد
كلل جبينه العرق وامتعق لونه ، فقال أحد القواد :
لقد زلزلت الأرض فجأة تحت أقدام الجنود
فتدحرجوا في هذه الهاوية
وقال ناى : لقد سقط أربعائة من شجمانى في
هذه الحفرة

وقال ولنكتون : وألف من شجمانى ابتلعهم
هذه الحفرة أيضاً

وعاق الجمع الانظار على شفتى القس منتظرين
ارشاده ، فاذا هو يسقط جانبا وتهمر من عينيه
الدموع وهو يتمتم بصلوات الأموات
وكان الجنود أرخوا من الحبال اربعائة متر ولم
يبق لديهم منها سوى عشرة أمتار ، فاذا بصوت
ضعيف كأنه الهمس خارج من القاع يقول : أرخوا
الحبال أيضاً

وأرخت الأمتار الباقية وربط الحبال في
نتوء من الصخر ، فخرج من الهاوية صوت يقول :
لا يمكننى أن أتقدم بعد ، إننى أسمع صراخاً
وعصفت الريح في القاع فانقطع الصوت

متلاشياً في الهدير
وتقدم المارشال ناى الى الشفير ونادى بأعلى
صوته : أيتها الشجاع ! ماذا تسمع ؟

وساد السكوت ، والرعب عملاً النفوس ، ورفع
السكاهن يده وبارك ، فانكشفت الرؤوس بخشوع
وجثا الجنود مصليين وهم ينتظرون الصوت الأخير

وكان الشجاع المدلى بطرف الحبال لم يعد يقوى
على رفع صوته لشدة البرد في القاع العميق ، فدفع
حشيرة أخيرة أوصات هذه السكاهات الى الشفير :
« أسمهم بنادون : فليحي الأمبراطور ... »

(ف . ف)

البارد يتصاعد من القاع السحيق . وأحنى القائدين
الكبيران رأسيهما ، فعلا وجههما الاصفرار ، إذ
وقفت أنظارهما في القمر البعيد الغور على لبد الظلام
وقال المارشال : يجب أن ندلى أحد الجنود
ليرى ما حل برفاقه . وانتفت إلى أحد القواد قائلاً :
أحضر الحبال وانثنى برجل

وخرج من الصفوف جندي فرنسى طويل
القامة ، وهو يتسم مفتخراً بالتضحية في سبيل
إخوانه ، تفلح سترته ، وربط وسطه بطرف الحبل
الطويل ؛ وبعد أن رفع يده بالسلام أمام المارشال وضع
رجليه على فوهة الهاوية ، وبدأ الجنود يرخون الحبل ،
وعندئذ تقدم أحد الجنود الانكيز طالباً النزول
إلى الهاوية أيضاً ، فقال ناى لوانكتون : لا يرسل
في مثل هذه المهمة عدوان ، فقد يشتبك في
المنحدر بمراك يحول دون بلوغنا النتيجة التي نتوقعها
فأطرق ولنكتون وتراجع الجندي الانكليزي
إلى صفه . وكان الجنود يصلون الحبل بحبل آخر ،
وبثالث ورابع ، حتى شمروا بوقوف الجذب من
الاعماق . فنادوا جميعهم بصوت واحد :
— ماذا ترى ؟

فأجابهم صوت الهاوية كأنه صدى بعيد :
لا أرى شيئاً ، أرخوا الحبال أيضاً
واستمر الجند على إرسال الحبال وقد خفت قوة
الجذب ، فاستدل القواد أن الشجاع يسير على مهل بين
الصخور متلمساً سبيله على مقاو لم تطأها أرجل بشر
وما مضت دقائق حتى أصبحت الحبال تلوح
في الفضاء كأنها لا تحمل شيئاً ، فوجم ولنكتون
وقال : أحضروا القس الذى وجدناه هذا الصباح
على سفح الجبل فلعله يعرف منفذاً لأخراج رجالنا منه
ومثل القس أمام القائدين فقال له ولنكتون :
أنت من أبناء هذه البلاد ، فهلا تعرف منفذاً بين